مبادىء نظرية التأثير

بوداود فوزية
كلية اللغة العربية والآداب
سيدي بلعباس الجزائر

تنطلق هذه النظرية من مبدأ أن النص الأدبي يبنى بكيفية مسبقة استجابات قرائه المفترضين ويحدد بكيفية قبلية سيرورات تلقيه الممكنة ، ويثير ويراقب كل واحدة منها بفضل قدرات التأثير التي تحركها بنياته الداخلية ، ومن هنا راحت تركز على النص في حد ذاته ،من حيث التأثيرات التي يمارسها مستندة في ذلك على المناهج النظرية والنصية ويعد إيزر من أبرز روادها .

إذ اهتم بقضية بناء المعنى وطرائق التفسير لاعتقاده أن "النص ينطوي على عدد كبير من الفجوات التي تتطلب قيام القارئ بعدد من الإجراءات حتى يتكون المعنى .ويحقق الغايات القصوى في الإنتاج "1

حيث كان السؤال الذي ركز عليه هو – كيف يكون للنص معنى بالنسبة للقارئ؟ كما انشغل بفكرة الفراغات الموجودة في النص ودورها في تحقيق الجمالية.وقد عرفت هذه البنية كما عرف الإبهام لدى إنجاردن " بأنها المنطقة المشعة للإبهام" 2

أي أنها منطقة الغموض في العمل الإبداعي .وبالتالي حظي القارئ الضمني بمكانة خاصة لدى إيزر فهو يراه موجودا قبل بناء المعنى الضمني في النص والذي أراد من خلاله إلقاء الضوء على وجود القارئ دون الحاجة للتعامل مع القراء الآخرين

من مبدأ أن النص الأدبي يبني بكيفية مسبقة استجابات القراء المفترضين Esthétique de l éffet وبذلك تنطلق جمالية التأثير

فالمتلقي لدى أيزر له دور مهم في ملئ الفراغات من خلال مشاركة واستجابته – أثناء عملية التفاعل .

أكد أيزر على دور المتلقي المتميز في عملية القراءة وقيمته التي لا غنى عنها في عملية الإيصال لأن "النص المبدئي في ذاته والذي لم تمسسه يد القارئ مجال للبحث" 3

فالمعنى يتشكل لحظة لقاء النص بالقارئ الأول بفراغاته والثاني بتوقعاته .ولكي يحدث ذلك لابد للعمل أن يكون بعيدا عن الوضوح في طرح عناصره فالقارئ الجيد يرفض الجهوزية ويبحث عن كل ما هو جديد وممتع.

وقد وضع لذلك مجموعة من الإجراءات التي تحقق التفاعل كما قدم جملة من المفاهيم لإستراتجيته في التحليل.

–1– كيف يتحقق التفاعل

اهتمت نظرية التلقي بالقارئ أكثر من المؤلف باعتبار أن النص لا يمثل فنا ما لم يخضع لعملية الإدراك والتي لا تتم إلا بواسطة القارئ خلال تفاعله مع النص عن طريق الإجراءات الآتية .

–حرية القارئ :

ويقصد بدلك التحرر من الجبرية و الالتزام بالاديولوجيات التي تعطل الفهم الصحيح للنص .

- **– المشاركة في صنع المعنى :**

ويشارك القارىء غي صنع المعنى بالقراءة والإدراك المباشر لأن " النص نداء والقراءة تلبية لنداء "4

كما يتحقق التفاعل بالإستذهان الذي يمثل ذاتية المتلقي وأرضية للإنتاج الجمالي ، الناتج عن تصادم المتلقي بالبياضات ومهمته استكمالها حتى يحقق المشاركة في صنع المعنى لأن النص لا يكتفي بذاته بل هو دوما بحاجة إلى قارئه ، لتصبح بذلك آلية القراءة تتحرك ضمن قطبين : قطب فني متعلق بالنص والأخر جمالي ناتج عن عملية القراءة ذاتها ،فالنص الأدبي "يكشف لقارئه عن وجهات نظر متغيرة تكون بحاجة إلى ملأ الأماكن غير محددة " 5

الغموض هو الذي يخلق المتعة الجمالية ويحرك خيال القارئ

الوسائل الاجرائية لدى إيزر :

1– الفراغات: اهتم إيزر ببناء المعنى لأن الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه ، فالتفاعل يخلق جمالية النص الذي يرى أنه يحتوي على طبقة من المظاهر التخطيطية وعليها يبنى كثيرا من المقترحات أهمها الفجوات ، فكلما سد القارئ الثغرات بدأ التواصل .

فتلك الفجوات هي التي تحفز المتلقي على تنفيذ عمليات أساسية في النص وبذلك يساهم المتلقي في عملية ملأ البياضات ويكون نتيجة ذلك ظهور الموضوع الجمالي ومعنى ذلك أن المعنى يبنى "بطريقة أفقية من النص إلى المتلقي حيث أنها تندرج في إطار تفاعلي " 6 فتصبح الفراغات هي تلك المساحات التي يحدث فيها التفاعل .من خلال أعمال إيزر حاول منح القارئ سمة التوافق ،وخلص إلى أن التوافق ليس معطى نصيا بل هو بنية من بنيات الفهم التي يملكها القارئ وهو الذي يبنيها ، لأنه المقصود بتحقيق الاستجابة ،وبناء على ذلك التصور افترض وجود فجوات في النص لابد أن يملأها القارئ بالاعتماد عل مقاربة التفاعل بين النص وبنية الفهم لدى القارئ إذ كان

إيزر يعرف في النقد بصاحب فكرة المسكوت عنه أي عدم التوافق بين النص والقارئ فالمعنى عنده أصبح بنية نصية تنتج عن العلاقة الحوارية بين النص والمتلقي ، حيث أن غياب المرجعية في الأثر الأدبي تفقد التواصل الجمالي إطاره المنظم ، وتحيل إلى تبادل معنى واضح وآخر ضمني .

فالخفي هو الذي يحرض القارئ على فعل شيء يضبطه الظاهر ،هذا الأخير الذي سرعان مايتغير عندما تظهر حقيقة الخفي ،فالفراغات تعمل محورا تدور حوله تفاعلات القارئ والنص .

بهذا نصل إلى المسكوت عنه في أي نص أدبي إذ أن الأشياء المفقودة هي التي تدفع القارئ ألى سد ثغراته واستحضار أفق توقعاته ، فيضطر إلى إضافة ما فهمه مما لم يذكر في النص ، ومنه المعاني التي يأتي بها المتلقي هي التي تعطي المعنى وزنا وشكلا ،فقد اعتبر إيزر تلك الثغرات حدودا فاصلة بين الخطوط العريضة و الأفاق النصية .

لق أقامت نظرية التقي العملية التواصلية على ثنائية نص وقارئ ،وجمالية التفاعل بينهما تتم بتفسير عمليات القراءة حيث يتم التحول من نص ومؤلف إلى نص ومتلقي ،لأن النص لا وجود له إلا بفعل القراءة ، التأويل يبدأ من استلام القارئ للنص فإن ما يتم تحديده فيه يتمحور حول قطبين هما :

أ – **مواضع اليقين** :

وهي الأكثر وضوحا في النص إذ نبد أمنها في عملية التأويل وهي التي تسمح لنا بتطبيقها على النص .

ب– **مواضع الشك** :

وتبدأ من الغموض الخفيف إلى الأكثر استغلاقا غي النص وهي التي تضع القارئ في موقف حرج يكون فيه مجبرا على التدخل ، ويملك حرية أكبر للتأويل باعتباره متلقيا ، لأن دخول المناطق المظلمة هي الذي يسمح بظهور مكمن النص الكثيرة ويتيح عرض العديد من التأويلات انطلاقا من أنه في كل نص مقروء معرفة ضمنية بنص أو بمجموعة من النصوص السابقة ،إذ يكشف تحليل القراءة أن النص يمارس عليه عنف .

فحاجة القارئ الى الفهم تدفعه الى محاولة جذب النص إليه ، حيث تثير عناصر الابهام ابداعية القارئ وذاكرته الثقافية وتفتح المجال نحو تعدد النص الذي يصفه إيزر بالنظام التآلفي فالمبهمات هي التي تزرع الحيرة في نفس المتلقي وتجعله يصطدم بنوع من الغموض يدفعه إلى استحضار أفق توقعه والوصول إلى ما يسميه إيزر بالنص التحتي ،الذي يوضع وجها لوجه مع شيء مخالف لكل التوقعات مما يدفعه لكشف خفايا النص .

حينها قفط تظهر قيمة المتلقي والنص معا عندما يشعر أنه فرد فعال في العمل الادبي ،فيزول التوتر بعد إنهاء عمليتي التجاوز والملأ فتحل كل العقد وتتضح كل المبهمات .

2– القارئ الضمني :

أولت جمالية التلقي والتأثير عناية كبيرة للقارئ ، فاهتمت بموقعه وأفق انتظاراته ،وجعلته بنية قائمة داخل النص لأن "متعة القارئ تبدأ عندما يصبح هو نفسه منتجا" 7من خلال تتبع الفراغات ومحاولة استكمالها في حالة من التوتر الذي يزول بملأها .

يرى إيزر أن القارئ الضمني هو مجموعة استعدادات مسبقة يرسمها العمل الأدبي (النص) وبالتالي فإن القارئ الضمني كمفهوم له جذور متأصلة في بنية النص ، وهو بذلك يعيش مجموعة من البنيات تستدعي تجاوبا يلزم القارئ فهم النص ، حيث يشبه إيزر العمل الأدبي بنزهة يأتيها المؤلف بالكلمات بينما يأتيها القارئ بالمعنى لكي يصف ذلك التفاعل اقترح مفهوم القارئ الضمني لأن "المصطلح يدمج من عملية تشييد النص للمعنى المحتمل من خلال عملية القراءة"8فمهمة القارئ ليست القراءة فقط بل إدراك المعاني المحتملة في النص

أيضا .

عمل ياوس وإيزر لتأسيس نظرية جديدة في فهم الأدب والاعتراضات على المبادئ البنيوية ،حيث عني ببناء المعنى وطرق تفسير النص معتمدا في ذلك على فكرة القارئ الذي هو أساس نظريته ، وقد رأى أن المتلقي هو منطلق فهم الأدب ، فقد افترض إيزر أن العمل الأدبي ينطوي على متلقي افترضه المؤلف بصورة لاشعورية ويكون متضمنا في النص ، حيث يؤكد أن جذور القارئ الضمني موجودة بصورة راسخة في بنية النص فعرفه في أد المواضيع بأنه "بنية نصية تتطلع إلى حضور متلق ما دون أن تحدده بالضرورة 9 فهو متضمن داخل النص ، وهو تصور يقيمه المؤلف في ذهنه أثناء عملية الإبداع ، فيساعد القارئ الفعلي في بناء معنى النص ،فبحضورهما يتحقق فعل القراءة .

القارئ الضمني لا يغيب القارئ الفعلي ولا يلغي وجوده لأنه شرط التوتر الذي يعيشه هذا الأخير عندما يحقق النص .

وجهة النظر الجوالة :

إن وجهة النظر الجوالة هي التي تثبت وجود القارئ في النص ،هذا الذي لا يمكن أن يدرك دفعة واحدة ،فمعنى النص لا يمكن تخيله إلا من خلال المراحل المختلفة للقراءة عند التقاء الذاكرة والتوقع وهو العمل الذي يسلط الضوء على المنظورات التي توفر لبعضها خلفيات مترابطة ، حيث تقوم وجهة النظر الجوالة بتجزيئ النص إلى بيانات متفاعلة تولد نشاطا تجميعيا أساسيا بالنسبة لفهم النص ،وقد أكد هذا غومبريج في قوله :" من الصعب دائما التمييز في قراءة الصور كما في الاستماع إلى الكلام بينما يعطى لنا وما نظيفه نحن إلى عملية الإسقاط التي يثيرها الإدراك ....إن تخمين المشاهد هو الذي يختبر مزيج الإشكال والألوان من أجل الحصول على المعنى المنسجم مبلورا هذا المزج في قالب حالما يتم إيجاد تأويل متسق ....".10.

فالمتلقي يحتل موقعا داخل النص ومنه فالعلاقة بين النص والقارئ تختلف عن العلاقة بين الموضوع والملاحظة إذ مكان العلاقة بين الذات والموضوع توجد وجهة نظر جوالة في النص ، وتقع في منظور خاص أثناء كل لحظة من لحظات القراءة " 11انطلاقا من أن أي عملية قراءة تتضمن ترابطات وتوقعات أو كما يسميها هوسرال بالترقبات

التي تنتج عن المؤشرات الدلالية للجمل وفيها يبرز نشاط القارئ نفسه حيث تكون في هذه اللحظة نافذة حول الطريق التي يمكن لها النشاط التركيبي لقارئ النص من أن يترجم وينقل إلى ذهنه الخاص.

كل ترابط جملة يحتوي على ما يسمى الجزء الفارغ الذي يتطلع الموالي أي توقع أو ترقب ويحتوي أيضا على جزء استرجاعي يجيب على توقعات الجملة السابقة ،لهذا فإن كل لحظك من لحظات القراءة هي عملية تذكر وترقب ، تعبر عن أفق مستقبلي هو في حالة انتظار لأن يحتل مجاله .

وجهة نظر الجوالة هي التي "تتيح للقارئ أن يسافر ...كاشفا بذلك كثرة المنظورات التي يترابط بعضها مع بعض "12كما تعبر عن أفق ماض يتلاشى باستمرار قد ملأ سابقا ،عبر الأفقين تشق وجهة النظر الجوالة طريقها في آن واحد ، وتجعلهما يندمجان معا ، لأن النص لا يمكن فهمه دفعة واحدة ويجب على التواصل الناجح أن يعتمد على النشاط الإبداعي للقارئ الذي تحركه وجهة النظر ليكتشف تعددية المنظورات المترابطة ويعيد توزيع العلاقات وهو ما يضفي على الموضوع الجمالي ميزة خاصة في النهاية .

الهوامش :

-1- عبد الكريم شرفي من فلسفات التأويل إلة نظريات القراءة .د.ط.د.ت صفحة 143

-2-روبرت هولب-نظرية التلقي مقدمة نقدية .ترجمة عز الدين إسماعيل ، النادي الأدبي الثقافي جدة .ط1 1994 صفحة 220

-3- عبد الكريم شرفي من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة صفحة 143

-4- صلاح فضل مناهج النقد المعاصر إفريقيا الشرق .د.ط.د.ت صفحة 221

-5- ناظم عودة الأصول المعرفية لنظرية التلقي ،دار الشروق للنشر والتوزيع .ط1 1997 صفحة 137

-6- عبد الناصر حسن مُحَّد نظرية التوصيل وقراءة النص الادبي صفحة 130

-7- فولفغانغ إيزر فعل القراءة وجمالية التجاوب في الأدب ص33

-8- اليامين بن التومي مرجعيات القراءة والتأويل عند ناصر حامد أبو زيد صفحة 224

-9- روبرت هولب صفحة 205

-10- ناظم عوده خضر الاصول المعرفية لنظرية التلقي صفحة 147

-11- فولفغانغ إيزر صفحة 63

-12- روبرت هولب نظرية التلقي 215 .